آليات اشتغال الحداثة في قصيدة "يخضر من فزع والنجم يجري إلى مستقر له" لعياش يحياوي

الاسم واللقب: منال عطوي

الدرجة العلمية: دكتوراه

الجامعة: محمد بوضياف بالمسيلة

رقم الهاتف: 0777849437

البريد الإلكتروني :manalAtoui01@gmil.com

المحور الأول: التجربة الشعرية عند الراحل عياش يحياوي

الملخص:

لقد اكتسب الخطاب الشعري الحديث في الفترة الأخيرة العديد من الآليات التي أسهمت في تشكيل نبائه وأثرت في متلقيه، حيث تحرر الشعر العربي من الأطر الكلاسيكية التي كانت تحكمها لعقود زمنية طويلة، لينفتح على تشكيلات وبناءات جديدة تحت ما يسمى بالحداثة ، هذه الأخيرة أكسبت النص الشعري ملامحا جديدة وشكلا جديدا ينم عن وعي فني جمالي متطور وتأسيس ذائقة مرتبطة بالحياة في مختلف مجالاتها.

انطلاقا من هذا تشكل النص الشعري في العصر الحديث وأصبت له خصوصية يتميز بها شكلا ومضمونا، فظهر جيل من الشعراء خاضوا غمار الحداثة في الشعر من بينهم "عياش يحياوي" في ديوانه " قمر الشاي"، وهو ما سنحاول عنده في قصيدة " يخضر من فزع والنجد يجري إلى مستقر له"، موضحين عناصر الحداثة فيها .

الحداثة في الشعر العربي:

يعتبر الشعر القالب الفني الذي استوعب ومازال يستوعب تاريخ الأمم على اختلاف أجناسها وثقافاتها ومعتقداتها، وهو ما جعله يرتقي يوما بعد يوم ويكون محط أنظار العديد من الدارسين كل منهم يدرسه من زاوية معينة.

وقد كان دوما عبارة عن حوصلة لتجارب الشعوب والأمم على مر الزمان، ناقلا بذلك يومياتها وتاريخها، وما يميز الشعر العربي الحديث هو أنه يتسم بالجدة والحداثة والقدرة الفعالة على استمالة النفس، وجعل القارئ يلمسه بكل جوارحه وعقله لسبب واحد هو أن الشعر لا يخاطب الوجدان والعاطفة فحسب، بل يخاطب العقل الذي هو الحاكم الأول، ويرجع هكذا لكونه يعتمد على وسائل وأدوات، غايتها التأثير في القارئ والدفع به إلى السمو بأفكاره والارتقاء بها.

وكون الإنسان فضولي بطبعه، يحب البحث عن الأشياء المثيرة التي تستدعي البحث فيها، مما أدى إلى اكتشاف أماكن الجمال في الأشياء، ولا شك أن الفن هو أرقاها لما في هذا الأخير من قدرة عالية على نقل الأفكار والمشاعر والهواجس بطرق مختلفة وللشعر الصدارة الأولى في هذه الفنون لقدرته على الغوص في أعماق النفس البشرية.

وما ميز الشعر العربي في العصر الجاهلي هو أن القصيدة الجاهلية وصلت إلى درجة الاكتمال في بنائها لصورها بتقاليدها الفنية، من وزن وقافية ومعان وأسلوب محكم في الصياغة، وأصبحت ناضجة مكتملة التكوين سليمة النظم، كشعر زهير بن أبي سلمى، وعنترة بن شداد، امرؤ القيس، طرفة بن العبد، لبيد بن ربيعة، عمر بن كلثوم وغيرهم من الشعراء الذين برزوا في العصر الجاهلي .

ولم يدم بالشعر العربي هذا الحال،"وابتداء من القرن الخامس الهجري، الحادي عشر ميلادي، بدأ الشعر العربي يتراجع ولذلك أسباب متعددة، من أبرزها هيمنة العناصر غير العربية على حكم بغداد

وغيرها من الحواضر، فهؤلاء الأمراء والوزراء يجهلون العربية وقيمها الأدبية والجمالية، لهذا لم يلتفتوا إلى تشجيع الأدب عامة والشعر خاصة...ومنها أيضا شيوع ظاهرة الزخرف البديعي واللفظي."[1]

لقد ظل الشعر يتراجع، ولا سيما في ظل أوضاع سياسية متدهورة، وضعف الاهتمام بالنواحي التعليمية فانحصرت حلقات الدرس في قضايا إيمائية ودينية من فقه وتفسير ورواية للحديث واستثنى الشعر، وضعفت سليقة الشعراء وجفت قرائحهم وقد عبر ميخائيل نعيمة عن حال الشعر في هذه الفترة حين قال:"أما الشعر فكان لا يقصد به غير الوزن والاستكثار من محسنات الصنعة، فملؤوه بالتورية والكناية والجناس والترصيع وجعلوا قصائدهم كلها كأنها شواهد نظموها ليذيلوا بها كتب البيان والبديع، وظهر في الشعر التطريز والتصحيف والتشطير والتخميس، وراح الشعراء يتبارون في اللعب بالألفاظ وجمعها، كما يتبارى الأطفال في جمع الحصى الملون وتنضيذه، وكان الشاعر منهم يلاحق البيت بالبيت، أو يشبك المصراع بالمصراع، ويخلط كلامه بكلام غيره."[2]

وبقي الشعر على هذا الحال وسميت هذه الفترة بعصر الضعف والانحطاط، أي أن الشعر صار متخلفا بكل ما في الكلمة من معنى، فقد غدا لا يعنى بغير التسلية والمجاملات، حتى الرثاء غدا هيكلاً شكليًا مليئًا بالعبارات المكررة، فكان الشعر عامة معنيًا بالمحسنات البلاغية من بديع وجناس وطباق...الخ.

مما جعل الشعر صنعة لا فنًا كما كان عليه في العصور السابقة "يدور حول نفسه في فراغ، كانت الحركة العامة للشعر العربي الحديث في هذا القرن باتجاه اكتساب القوة والحداثة، وقد ارتبط ذلك بيقظة مفاجئة عند الشعب العربي على واقع العالم من حوله عالم يتفوق في التقدم والتطور على عالمه، وكان الصراع في سبيل الحرية والتقدم قد حمل معه إلى الشعراء والأدباء تشوقا واسعا للتعبير بأسلوب يفي حاجات العصر بصورة أكبر."[3]

استمر الشعر العربي في مجمله في ذلك الوقت، يدور في حلقة ضيقة من الموضوعات الفردية التي لا تمس روح الشعر ولا حياة الناس ولا شؤونهم، فهو شعر ضعف فيه الخيال والصدق الفني والعاطفة وعمق التجربة، وباختصار أصيب الشعر بالجمود الفني، حتى إذا حل العصر الحديث بدا لعوامل النهضة تأثير كبير في الشعر إذ نمت رغبة ملحة في التغيير والتجديد لدى الشعراء ولاسيما في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين بجهود العديد من الشعراء ،"ومن هنا ثار هؤلاء المجددون على طريقة المحافظين، ونعوا عليهم اتخاذهم النماذج البيانية القديمة مثلا أعلى، كما نعوا عليهم زجهم بالشعر في المناسبات والمحافل، والبعد عن النفس الإنسانية كما عابوهم أيضا الاهتمام بقشور الأشياء وظواهرها"[4]الأمر الذي دفع بالكثير من الشعراء إلى النهوض بالشعر العربي من جديد وهو ما اصطلح عليه بالتجديد في الشعر أو الحداثة.

فكان التجديد في الشعر العربي الحديث نقلة نوعية أسدلت الستار على فترة تاريخية ماضية تميزت بالضعف وقلة الإبداع ـ عصر الضعف والانحطاط ـ وأعلنت عن ميلاد عصر آخر يعمل على التغيير والخلق الجديد في تذوق الشعر وفي التعامل مع النصوص الإبداعية.

فكثيرًا ما يرتبط مصطلح التجديد بالحداثة فهما " متلازمان، وإذا كانت الحداثة منفصلة عن حركة التطور التاريخي كانت زائفة وثمة اختلاف آخر فيما بينهما فالتجديد جزئي نسبي،وهي كلية شمولية مقترنة بعصرنا دون غيره من العصور."[5] وقد عبر الناقد محمد غنيمي هلال عن موقفه الخاص الذي يعبر من خلاله عن رأييه في قضية التجديد فيقول:" التجديد لا يقطع الصلة نهائيا بالقديم، وإن جدّد من قيمه ومعالمه ولم يكن للجديد أن يتولد بدون القديم، وفي هذا الباب قد يتولد النقيض من النقيض، وهذه الظاهرة أوضح ما تكون في التجديد الأدبي، فمهما بعدنا عن أدبنا القديم، في أجناسه الأدبية وفي المعايير الفنية وفي الغايات الإنسانية، فصلتنا واضحة في الصورة الفنية الجزئية وفي اللغة."[6] فهنا محمد

غنيمي يبني التجديد على أساس القديم الذي يعتبره عنصرًا مهمًا في عملية التطور والإبداع خاصة في بناء الشعر وتشكيل صوره الفنية ولغته التعبيرية.

تجليات الحداثة في قصيدة عياش يحياوي:

يقوم الشعر في تشكيل بنية موسيقية على عنصرين أساسيين هما: الإيقاع والوزن إذ يكمل أحدهما الآخر في تناسب وتلاحم شديدين، غير أن الوزن يعتبر جزءا من الإيقاع، فهو يمثل مجموع التفعيلات التي يتألف منها البيت، ومادام أن البيت هو الوحدة الموسيقية للقصيدة، فقد نظر النقاد إلى الوزن على أنه عنصر هام من عناصر الشعر ودعامة أساسية من دعائمه.

وفي إطار حركة تطوير الشعر العربي، أظهر الشعراء رغبة واضحة في العمل على تغيير الشكل الموسيقي للشعر، فالشاعر في العصر الحديث والمعاصر لم يعد ينسج على منوال نموذج عروضي جاهز وإنما نزع إلى التغيير في التعبير عن تجربته الشعورية التي تنبع الموسيقى منها، وبهذا يكون شعراء العصر الحديث قد خرجوا عن تقاليد القصيدة التقليدية في الأوزان التي كانت محافظة على وحدة الوزن أشد محافظة، فالتزموا به في أبيات القصيدة كلها وزادوا أن التزموا رويًا واحدًا في جميع القصيدة.

نتج عن هذا الخروج ما سمي بالشعر الحر(شعر التفعيلة) ومن كتاب هذا النوع الشعري "عياش يحياوي"، الذي نجد الوزن عنده هو إيقاعات نفسية تخضع مباشرة للحالة النفسية والشعورية للشاعر، وقد نظم الشاعر على هذا الشكل فجاءته قصائده منظومة على شكل أسطر من الشعر الحر التي تعتمد على شطر واحد، كما أنها قد تأتي أحيانا على شكل سطور نثرية متسلسلة ، إذ يقول في مطلع قصيدة "يخضر من فزغ والنجم يجري إلى مستقر له" :

يا سما، يتدلى على شرفة الليل، يكسر لوز المكان بضحكاته وذراعاه أرجوحة للهواء الذي اصفر من كذب البحر، يخرج من فمه شجر غاسق يتدلى لأغصانه صفة في عواء الكهوف يرى آخر الليل خيلا تطير، وصحراء تجمع كثبانها وتهرول مثل عجوز مزملة بالوضايا يرى إبلا يبست بالهوادج والنمل يسحبها نحو خيماته السود لا بر في البر غير نشيد الحداة وحيدا كناي..

يا سما، يتدلى على شرفة الليل، يقضم أسماءه

تتدلى الخفافيش تلعق أسماءها

تتدلى الدموع خيوطا تنوس على قلق يابس لا يرى

يتدلى الظلام على شكل جمجمة حفر الفأر في غيها

واستوى ملكا للجماجم[7].

وما يمكن ملاحظته أيضا أن الشاعر الحديث لم يعد يلتزم بعدد معين من التفعيلات، مما يدل على أنه أصبح للشاعر الحرية في اختيار التفعيلة المناسبة يكررها متى أراد وذلك استجابة لهواه وما يفرضه المعنى، إذ أن هذا التجديد الذي أراده الشاعر لقصيدته يشكل نوعا من أشكال البناء الشكلي للقصيدة الحديثة، إذ لم يرد لها أن تأخذ شكلًا نهائيًا، يوصلها إلى الجمود الشكلاني، الذي يفقد القصيدة بريقها وجمالياتها وبهذا لجأ الشاعر إلى الموسيقى الجديدة وإلى التعامل مع الأوزان تعاملًا جديدًا يختلف عن الإطار السابق للقصيدة العربية.

كما شكل التكرار هو الأخر عنصرا من عناصر الحداثة الشعرية لدى "عياش يحياوي" إذ يقول في ذات القصيدة :

ويهمني المطر..

يامطر.. يامطر.. يامطر

ها هنا خلف ظهرك أطفالنا الجائعون

ويتامى الحروب تفاصيل في خبر عابر

وحبة القمح تتعلم في مدارس اللاجئين

كيف تمشط شعرها وتصير بلادا

في الليل تحتك من وجع بالتراب

وتسمع زغردة ومناديل حمرا من الخجل

المسافات أجنحة لا تطير

قضى التيه أن يتسلق أحفادها الأرض

حتى تقوم القيامة في الشعر

والشمس تنزل للنهر

تشربه كله.. كله.. كله[8]

فالشاعر يشكل نصه قصديًا عبر سلسلة من البنى الظاهرية المتنوعة، ففي المقطع السابق نلاحظ تكرار كلمة "مطر" أربع مرّات متتالية، وكلمة "كله" ثلاث مرات، مما يجعل لهذا التكرار طاقة إيقاعية قادرة على طرح إصدار الشاعر الذي يصف واقعه وبيئته، كما أن الأنماط التكرارية تتمحور في القصيدة لتقدم مجموعة دلالات وإيحاءات تستند إلى مجموعة إسقاطات ذهنية ونفسية لدى الشاعر.

بهذا يكون التكرار عنصرًا موسيقيًا هامًا في القصيدة فإذا كان لهذا المظهر الحداثي دورا في الشعر، من حيث أن تكرار لفظة معينة أو جملة معينة داخل القصيدة له صلة وثيقة بالجانب النفسي عند الشاعر؛ لأنه يسلط الضوء على نقطة معينة دون غيرها ويؤكد عليها، أو هو ترجمة لفكرة معينة يريد الشاعر توصيلها للمتلقي .

كل ما سبق كان شرحا للحداثة التي طرأت على الشعر في شكله، أما من ناحية المضمون فقد مثلت الصورة الشعرية أداة الشاعر ووسيلته التي تحول الأحاسيس والأفكار إلى كلمات و عبارات تعبر عن رؤية يحاول الشاعر بموجبها إعادة بناء العالم و ذلك عن طريق الخيال، فهي من أهم المكونات الجمالية التي وجد فيها الشعراء مجالا رحبا لتحديث الشعر.

فالصورة الشعرية التقليدية تعطي الأولوية للموجودات الخارجية في عملية الفهم حيث أن عناصر الصورة أجزاء مجسدة في الخارج، كما أنها تقوم على المشابهة بين طرفين في حين أن العلاقة بين جزئي الصورة علاقة منطقية، أما الصورة عند الشعراء الحداثيين– بما فيها الصورة البلاغية–فقد تغيرت، حيث أنها أصبحت تعتمد على الرموز والأسطورة، فنلاحظ أن الشعراء الحداثيين صاروا يجمعون بين العناصر المتناقضة في تشكيلها.

حيث أنها أصبحت تمزج بين العناصر بطريقة تجعل الصورة غامضة، الأمر الذي يصعب على المتلقي إدراكها و فهم مقصد الشاعر، نتيجة للتداخل بين عناصر متباعدة في تكوينها في إطار البحث عن علاقة جديدة بين هذه العناصر خدمة للرؤية الشاعر أو تعبيرا عن انفعال شعوري خاص يربط بين جميع عناصر القصيدة.

كما أنها لم تعد كما كانت سابقا تزيينية أو زخرفا بيانيا يهدف إلى التوضيح، بل أصبحت متغيرة تستلزم قراءة واعية و تستهدف قارئا مقصودا يتمتع بخلفية ثقافية واسعة، ومن هؤلاء الشعراء الحداثيين الذين تغيرت عندهم الصورة الشعرية نجد الشاعر "عياش يحياوي" :

صحراء تجمع كثبانها وتهرول مثل عجوز مزملة [9]

لقد استخدم الشاعر التشبيه بكثرة في قصيدته، وفي المثال السابق فقد وظف الشاعر حرف التشبيه (مثل) في تشبيه الصحراء التي تجمع كثبانها الرملية ب(العجوز) الطاعنة في السن التي أثقلتها

هموم الحياة، والذي ربط المشبه بالمشبه به هي الأداة (مثل) ، وهذه تشبيهات مادية عقلية، لكنها تحمل دلالات نفسية عميقة.

تتوالى التشبيهات في القصيدة، إذ يقول في موضع آخر:

المسافات تُرضع أصغر أسمائنا

وتمهد قبر النهار لأبنائها

تتطاول حتى كأن الجبال كوابيس تل غرير

أو كأن البحار فناجين مشحونة لأواسط أفريقيا

المسافات تقطعنا إربا إربا[10]

فقد استلهم الشاعر هنا عناصر صورته من مجال الطبيعة، التي شبه فيها المسافات بالجبال وبالبحار التي يراها تتمدد وتطول وهذا ما زاده بعدا وشوقا.

بالإضافة إلى التشبيه نجد الاستعارة هي الأخرى حاضرة في القصيدة ، حيث إذا نظرنا إلى الصورة الاستعارية في قصيدة " يخضر من فزع والنجم يجري إلى مستقر له" نجد أن الشاعر نوع في تشكيل صورة الاستعارية بين التشخيص والتجسيم، كما تنوعت مصادر تشكل هذه الصور من مجال الحياة الإنسانية إلى مجال الحيوان والطبيعة والتراث.

ومن الصور الاستعارية في هذه القصيدة هذه الصورة الواردة في قوله:

تبلع الأرض أعراسها

وتفيق الكهوف من النوم، تخرج من كُنسٍ أنجم خائفات

تطل على بعضها، تتدافع نحو مروج السديم[11]

يستلهم الشاعر بعض عناصر صوره الاستعارية من الطبيعة، ففي الأسطر السابقة يشبه الشاعر معاناة أيامه بالكوابيس، حيث شبه (الجبال) مادي شيء بشيء معنوي (الكوابيس) .

ويجعل الشاعر من'المسافة' إحدى صوره، فهي بمثابة المرأة التي تلد وترضع بعدما تضع مولودها، أو الإنسان الذي يقوم بعملية التقطيع، حيث حذف المشبه به وهو الإنسان وترك ما يدل عليه (ترضع– تقطع) على سبيل الاستعارة المكنية.

كما تعتبر الكناية لونا من ألوان التعبير البياني وهي كل فهم من سياق الكلام، فهي تمنح للشاعر فرصة في أن يعبر كيفما شاء عن طريق علاقته باللغة ليأتي ويبدع أشكالًا غير مألوفة.

وإذا نظرنا إلى الشاعر "عياش يحياوي " في موقفه اتجاه استخدام الكتابة في تشكيل الصورة الشعرية، فقد اعتمد عليها بكثرة في شعره خاصة في قصديته "يخضر من فزع والنجم يجري إلى مستقر له" ، يقول:

تتدلى الخفافيش تعلق أسماءها

تتدلى الدموع خيوطا تنوس على قلق يابس لا يرى

يتدلى الظلام على شكل جمجمة حفر الفأر في غيها

واستوى ملكا للجماجم[12]

في هذه الأبيات يقدم الشاعر تشكيلتات متنوعة لكنايات مختلفة دلاليًا على الرغم من انحدارها في الرؤية الكلية، فنجد الشاعر قد اتخذ من الكناية ستارًا يحتمي به ليبوح عما يدور في خلجات نفسه، فنرى في السطر الأول (تتدلى الخفافيش تعلق أسماءها) فالتشكيل الكنائي لهذا السطر يدخل في باب الوصف الذي يقع فيه الشاعر حينما يصف إصرار الخفافيش ثم يتابع الشعر وصف للدموع

(تتدلى الدموع) وهنا كناية عن صفة وهي كثرة البكاء، أما عبارة (يتدلى الظلام) فهنا كناية عن غروب الشمس وحلول الظلام ودخول وقت الليل.

يقول أيضا:

اللوز نعسان في صحته

المخالب توقظه

تهتك حرمته

ويسيل الليل موسيقا..[13]

إذن كانت هذه بعض الصور الكنائية في القصيدة، وهذا دليل على حضور الكناية في أسلوب الشاعر ولو بالنسبة القليلة. ومن خلال ما تم توضيحه نخلص إلى أن الصورة الشعرية في ديوان "يخضر من فزع والنجم يجري إلى مستقر له" قد تنوعت بين تشبيه واستعارة وكناية.

وبهذا يكون "عياش يحياوي" قد عرف بروعة التناول، وروعة الحداثة الشعرية حتى أصبحت القصيدة عنده في شكلها الفني إدارة هامة من أدوات التجديد الفني، فعمل على تجاوز قوالب القصيدة التقليدية التي وضعها العرب القدامى من وزن وشكل وتوظيف مغاير للتكرار.

الهوامش:

1- إبراهيم خليل، مدخل لدراسة الشعر العربي الحديث، دار المسيرة، عمان، ط1، 2003 ،ص15.

2 – ميخائيل نعيمة، الغربال،مؤسسة نوفل، بيروت (لبنان) ،(د،ط)، (د،ت)، ص249.

3 – سلمى خضراء الجيوسي، الاتجاهات والحركات في الشعر العربي الحديث، تر: عبد الواحد لؤلؤة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2001، ص36.

4 – أحمد هيكل، تطور الأدب الحديث في مصر، دار المعارف، ط6، 1994، ص150.

5 – خليل الموسى، الحداثة في حركة الشعر العربي المعاصر، مطبعة الجمهورية، دمشق، ط1، 1991، ص19.

6 – محمد غنيمي هلال، قضايا معاصرة في الأدب والنقد، دار نهضة مصر، القاهرة، (د، ط)، (د، ت)، ص42.

7 – عياش يحياوي، قمر الشاي، مطبعة دار الفجر ، أبوظبي، ط1، 2008، ص 11.

8 – المرجع نفسه ، ص 13.

9 – المرجع نفسه ، ص 11.

10 – المرجع نفسه، ص 12.

11 –المرجع نفسه، ص ن.

12 – المرجع نفسه، ص 11.

13 – المرجع نفسه، ص 14.